

تأليف

محمد صالح المنجد

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م



مكتبة السنة

الدار السلفية لنشر العلم

القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين ،ناصية شارع الجمهورية،
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده و نستعينه و نستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، و من يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد :

فإن الثبات على دين الله مطلب أساسي لكل مسلم صادق يريد سلوك الصراط المستقيم بعزيمة ورشد.

وتكمن أهمية الموضوع في أمور منها:

○ **وضع المجتمعات الحالية** التي يعيش فيها المسلمون، وأنواع الفتن و المغريات التي بنارها

يكتوون، وأصناف الشهوات والشبهات التي بسببها أضحى الدين غريبًا فنال المتمسكون به مثلاً عجيبًا «**القابض على دينه كالقابض على الجمر**».

ولا شك عند كل ذي لبّ أن حاجة المسلم اليوم لوسائل الثبات أعظم من حاجة أخيه أيام السلف، والجهد المطلوب لتحقيقه أكبر؛ لفساد الزمن، وندرة الإخوان، وضعف المعين، وقلة الناصر.

○ **كثرة حوادث الردة** والنكوص على الأعقاب، والانتكاسات حتى بين بعض العاملين للإسلام مما يحمل المسلم على الخوف من أمثال تلك المصائر، ويتلمس وسائل الثبات للوصول إلى برٍ آمن.

○ **ارتباط الموضوع بالقلب**؛ الذي يقول النبي ﷺ في شأنه : «**لقلب ابن آدم أشد انقلابًا من القدر إذا اجتمعت غليًا**»[1].

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤)، والحاكم (٢/ ٢٨٩)، وهو في السلسلة الصحيحة (١٧٧٢).

ويضرب عليه الصلاة والسلام للقلب مثلاً آخر فيقول: «**إنما سمي القلب من تقلُّبه، إنما مثل القلب كمثل ريشة في أصل شجرة يُقلِّبها الريحُ ظهراً لبطن**»(١).

فسبق الحديثُ قول الشاعر:

وما سُمي الإنسان إلا لنسيه
ولا القلبُ إلا أنه يتقلب

فتثبيت هذا المتقلِّب برياح الشهوات والشبهات أمرٌ خطيرٌ يحتاج لوسائل جبارة تكافئ ضخامة المهمة وصعوبتها.

(١) رواه أحمد (٤/٤٠٨)، وهو في صحيح الجامع (٢٣٦١).

وسائل الثبات

ومن رحمة الله - عزّ وجلّ - بنا أن بيّن لنا في كتابه وعلى لسان نبيه وفي سيرته وسائل كثيرة للثبات. أستعرض معك - أيها القاريء الكريم - بعضًا منها:

أولا : الإقبال على القرآن

القرآن العظيم وسيلة التثبيت الأولى، وهو حبل الله المتين، والنور المبين؛ من تمسك به عصمه الله، ومن اتبعه أنجاه الله ، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

نص الله على أن الغاية التي من أجلها أُنزل هذا الكتاب منُجَّمًا مفصّلاً هي التثبيت، فقال تعالى في معرض الرد على شُبه الكفار: ﴿**وقال الذين كفروا لولا نزّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً كذلك لنثبتَ به**

فؤادك ورتّلناه ترتيلاً * ولا يأتُونك بمثَلٍ إلا جئناك بالحقّ وأحسنَ تفسيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣].

لماذا كان القرآن مصدرًا للتثبيت ؟

- **لأنه يزرع الإيمان ويزكي النفس بالصلة بالله.**
- **لأن تلك الآيات تنزل بردًا وسلامًا على قلب المؤمن** فلا تعصف به رياح الفتنة، ويطمئن قلبه بذكر الله.
- **لأنه يزود المسلم بالتصورات والقيم الصحيحة** التي يستطيع من خلالها أن يُقوِّم الأوضاع من حوله، وكذا الموازين التي تهيئ له الحكم على الأمور فلا يضطرب حكمه، ولا تتناقض أقواله باختلاف الأحداث والأشخاص.
- **أنه يردُّ على الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام** من الكفار والمنافقين كالأمثلة الحية التي عاشها الصدر الأول، وهذه نماذج:

- ما هو أثر قول الله عزّ وجلّ: ﴿**ما ودّعكَ ربُّك وما قَلَى**﴾ [الضحى:٣] على نفس رسول الله ﷺ، لما قال المشركون: (وُدِّع محمد. . .)؟[١].

- ما هو أثر قول الله عزّ وجلّ: ﴿**لسان الذي يلحدون إليه أعجميٌّ وهذا لسانٌ عربيٌّ مبينٌ**﴾[النحل: ١٠٣] لما ادعى كفار قريش أن محمدًا ﷺ إنما يعلمه بشر وأنه يأخذ القرآن عن نجّار رومي بمكة؟

- ما هو أثر قول الله عزّ وجلّ: ﴿**ألا في الفتنة سقطوا**﴾ [التوبة: ٤٩] في نفوس المؤمنين لما قال المنافق ﴿**ائذن لي ولا تفتنّي**﴾.

أليس تثبيتًا على تثبيت وربطًا على القلوب المؤمنة، وردًا على الشبهات، وإسكاتًا لأهل الباطل...؟ بلى وربي.

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ١٥٦).

ومن العجب أن الله يعد المؤمنين في رجوعهم من الحديبية بغنائم كثيرة يأخذونها (وهي غنائم خيبر) وأنه سيجعلها لهم وأنهم سينطلقون إليها دون غيرهم وأن المنافقين سيطلبون مرافقتهم، وأن المسلمين سيقولون: لن تتبعونا. وأنهم سيصرّون؛ يريدون أن يبدلوا كلام الله، وأنهم سيقولون للمؤمنين بل تحسدوننا، وأن الله أجابهم بقوله: **﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾** ثم يحدث هذا كلُّه أمام المؤمنين مرحلة بمرحلة وخطوة بخطوة وكلمة بكلمة.

- ومن هنا نستطيع أن ندرك الفرق بين الذين ربطوا حياتهم بالقرآن، وأقبلوا عليه تلاوة وحفظًا وتفسيرًا وتدبرًا؛ منه ينطلقون، وإليه يفيئون، وبين من جعلوا كلام البشر جُلّ همهم وشغلهم الشاغل.

- ويا ليت الذين يطلبون العلم يجعلون للقرآن وتفسيره نصيبًا كبيرًا من طلبهم.

ثانيا : التزام شرع الله والعمل الصالح

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثّابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويُضِلُّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال قتادة: (أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿وفي الآخرة﴾ في القبر). وكذا روى عن غير واحد من السلف[١].

وقال سبحانه: ﴿ولو أنّهم فعلُوا ما يُوعظون به لكان خيرًا لهم وأشدَّ تثبيتًا﴾ [النساء: ٦٦]. أي على الحق.

وهذا بيّن، وإلا فهل نتوقع ثباتًا من الكسالى القاعدين عن الأعمال الصالحة إذا أطلّت الفتنةُ برأسها وادْلَهَمَّ الخطبُ؟! ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم صراطًا مستقيمًا.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ / ٤٢١).

ولذلك كـان ﷺ يثابر على الأعـمال الصـالحة، وكان أحبّ العمل إليه أدومه وإن قلّ.

وكان أصـحابه إذا عـملوا عمـلاً أثبتـوه. وكانت عائشة - رضي الله عنها - إذا عملت العمل لزمته.

وكان ﷺ يقول: «من ثابر على اثنتي عشرة ركعة وجبت له الجنة»[١] (أي: السنن الرواتب).

وفي الحديث القـدسي: «ولا يزال عبدي يتـقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه»[٢].

ثالثـًا: تـدبر قصص الأنبياء ودراستـها للتاسي والعمل

والدليل على ذلك قـوله تعـالى: ﴿وكـلاً نقصُّ

(١) سنن الترمذي ط شاكر (٢ / ٢٧٣) وقـال: حديث حسن أو صحيح، وهو في صـحيح النسـائي (١/ ٣٨٨)، وصحـيح التـرمذي (١/ ١٣١). للشيخ الألباني حفظه الله.
(٢) رواه البخاري. انظر فتح الباري (١١/ ٣٤٠).

عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين﴾ [هود: ١٢٠].

فما نزلت تلك الآيات على عهد رسول الله ﷺ للتلهي والتفكه، وإنما لغرض عظيم هو تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وأفئدة المؤمنين معه.

○ لو تأملت يا أخي قول الله عزّ وجلّ: **﴿قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين* قلنا يانار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم* وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين﴾** [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

قال ابن عباس: **(كان آخر قول إبراهيم حين أُلقي في النار: «حسبي الله ونعم الوكيل»)**(١).

ألا تشعر بمعنى من معاني الثبات - أمام الطغيان والعذاب - يدخل نفسك وأنت تتأمل هذه القصة؟.

○ لو تدبرت قول الله عزّ وجلّ في قصة موسى:

---

(١) الفتح (٨/ ٢٢٩).

﴿فلمـا تراءى الجـمـعـان قال أصـحـاب مـوسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

ألا تحس بمعنى آخر من معاني الثبات عند ملاحقة الظالمين، والثبات في لحظات الشـدة وسط صرخات اليائسين وأنت تتدبر هذه القصة؟

○ لو استـعرضت قصـة سحرة فـرعون، ذلك المثل العجيب للثُلَّة التي ثبتت على الحقّ بعد ما تبيّن.

ألا ترى أن معنًى عظيمًا من معـاني الثبات يستقر في النفس أمام تهديدات الظالم وهو يقول:

﴿ءامنتم له قـبل أن ءاذن لكم إنه لكبـيـركم الذي علَّمكـم السّـحـر فـلأقطّعن أيديكم وأرجـلكم من خـلاف ولأصلبنّكم في جـذوع النخل ولتـعلمُنّ أيُّنا أشدُّ عذابًا وأبقَى﴾[طه: ٧١].

ثبات القلة المؤمنة الذي لا يشوبه أدنى تراجع وهم

يقولون:

﴿لن نؤثِرَكَ على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقضِ ما أنت قاضٍ إنّما تقضِي هذه الحياةَ الدُّنيا﴾ [طه: ٧٢].

○ وهكذا قصة المؤمن في سورة يس ومؤمن آل فرعون وأصحاب الأخدود وغيرها يكاد الثبات يكون أعظم دروسها قاطبة.

رابعـًا: الدعــاء

من صفات عباد الله المؤمنين أنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يثبتهم:

○ ﴿ربنا لا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ [آل عمران: ٨]

○ ﴿ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبّت أقدامنا﴾ [البقرة: ٢٥٠]

ولما كانت «قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من

أصابع الرحمن كقلب واحـد يصرفه حيث يشاء»(١)

كان رسـول الله ﷺ يكثـر أن يقـول : «**يا مُـقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»(٢).

خامسًا : ذكـــر اللـــه

وهو من أعظم أسباب التثبيت.

○ وتأمل في هذا الاقتران بين الأمـرين في قوله عزّ وجلّ: ﴿**يا أيهـا الذين آمنوا إذا لَقـيتُـمْ فئـة فـاثْبتـوا واذكروا الله كثيراً**﴾ [الأنفال: ٤٥]، فَجَعله من أعظم ما يعين على الثبات في الجهاد.

(وتأمل أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما

(١) رواه الإمام أحمـد ومسلم عن ابن عمـر مرفوعًا، انظر مسلم بشرح النووي (١٦/٢٠٤).

(٢) رواه الترمذي عن أنس مرفوعًا؛ تحفة الأحوذي (٦/٣٤٩)، وهو في صحيح الجامع (٧٨٦٤).

كانوا إليها؟)[1]. بالرغم من قلة عدد وعدة الذاكرين الله كثيرًا.

○ وبماذا استعان يوسف عليه السلام في الثبات أمام فتنة المرأة ذات المنصب والجمال لما دعته إلى نفسها؟ ألم يدخل في حصن «معاذ الله» فتكسرت أمواج جنود الشهوات على أسوار حصنه؟

وكذا تكون فاعلية الأذكار في تثبيت المؤمنين.

سادسًا: الحرص على أن يسلك المسلم طريقًا صحيحًا

والطريق الوحيد الصحيح الذي يجب على كل مسلم سلوكه هو طريق أهل السنة والجماعة؛ طريق الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، أهل العقيدة

(١) ما بين القوسين مقتبس من كلام ابن القيم - رحمه الله - في الداء والدواء.

الصافية والمنهج السليم، واتباع السنة والدليل، والتميز عن أعداء الله ومفاصلة أهل الباطل.

وإذا أردت أن تعرف قيمة هذا في الثبات فتأمل وسائل نفسك: لماذ ضلّ كثير من السابقين واللاحقين وتحيروا ولم تثبت أقدامهم على الصراط المستقيم ولا ماتوا عليه؟ أو وصلوا إليه بعدما انقضى جلُّ عُمرهم وأضاعوا أوقاتًا ثمينة من حياتهم؟.

فترى أحدهم يتنقّل في منازل البدع والضلال من الفلسفة إلى علم الكلام، والاعتزال إلى التحريف، والتأويل إلى التفويض والإرجاء، ومن طريقة في التصوف إلى أخرى.

وهكذا أهل البدع يتحيرون ويضطربون؛ وانظر كيف حُرم أهل الكلام الثبات عند الممات فقال السلف: (أكثر الناس شكًّا عند الموت أهل الكلام).

لكن فكر وتدبر هل رجع أحدٌ من أهل السنة

والجماعة عن طريقه سَخْطَةً بعد إذ عرفه وفقهه وسلكه؟ قد يتركه لأهواء وشهوات أو لشبهات عرضت لعقله الضعيف، لكن لا يتركه لأنه قد رأى أصح منه أو تبين له بطلانه.

ومصداق هذا مساءلة هرقل لأبى سفيان عن أتباع محمد ﷺ؟ قال هرقل لأبى سفيان: (فهل يرتد أحدٌ منهم سَخْطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟) قال أبو سفيان: لا. ثم قال هرقل: (وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب)[1].

سمعنا كثيرًا عن كبار تنقلوا في منازل البدع وآخرين هداهم الله فتركوا الباطل وانتقلوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة ساخطين على مذاهبهم الأولى، ولكن هل سمعنا العكس؟!

فإن أردت الثبات فعليك بسبيل المؤمنين.

---

(١) رواه البخارى - الفتح (١/ ٢٣).

سابعًا: التربية

التربية الإيمانية العلمية الواعية المتدرجة عامل أساسيّ من عوامل الثبات.

التربية الإيمانية: التي تحيي القلب والضمير بالخوف والرجاء والمحبة، المنافية للجفاف الناتج من البعد عن نصوص القرآن والسنة، والعكوف على أقاويل الرجال.

التربية العلمية: القائمة على الدليل الصحيح، المنافية للتقليد والإمعية الذميمة.

التربية الواعية: التي لاتعرف سبيل المجرمين وتدرس خطط أعداء الإسلام، وتحيط بالواقع علمًا، وبالأحداث فهمًا وتقويمًا، المنافية للانغلاق والتقوقع على البيئات الصغيرة المحدودة.

التربية المتدرجة: التي تسير بالمسلم شيئًا فشيئًا، ترتقي به في مدارج كماله بتخطيط موزون، والمنافية للارتجال والتسرع والقفزات المحطِّمة.

ولكي ندرك أهمية هذا العنصر من عناصر الثبات، فلنعد إلى سيرة رسول الله ﷺ ونسائل أنفسنا.

○ ما هو مصدر ثبات صحابة النبي ﷺ في مكة، إبّان فترة الاضطهاد؟

○ كيف ثبت بلال وخباب ومصعب وآل ياسر وغيرهم من المستضعفين وحتى كبار الصحابة في حصار الشعب وغيره؟

○ هل يمكن أن يكون ثباتهم بغير تربية عميقة من مشكاة النبوة، صقلت شخصياتهم؟

○ لنأخذ رجلاً صاحبيًا مثل خباب بن الأرت رضي الله عنه، الذي كانت مولاته تحمي أسياخ الحديد حتى تحمرّ، ثم تطرحه عليها عاري الظهر فلا يطفئها إلا ودك (شحم) ظهره حين يسيل عليها، ما الذي جعله يصبر على هذا كله؟!

○ وبلال تحت الصخرة في الرمضاء، وسُمَيّة في

الأغلال والسلاسل.

○ وسؤال منبثق من موقف آخر في العهد المدني، من الذي ثبت مع النبي ﷺ في حُنين لما انهزم أكثر المسلمين؟ هل هم حديثو العهد بالإسلام ومُسلِمةُ الفتح الذين لم يتربوا وقتًا كافيًا في مدرسة النبوة، والذين خرج كثير منهم طلبًا للغنائم؟ كلا. إنّ غالب من ثبت هم أولئك الصفوة المؤمنة التي تلقت قدرًا عظيمًا من التربية على يد رسول الله ﷺ.

لو لم تكن هناك تربية ترى هل كان سيثبت هؤلاء؟

ثامنًا: الثقة بالطريق

لاشك أنه كلما ازدادت الثقة بالطريق الذي يسلكه المسلم، كان ثباته عليه أكبر..

ولهذا وسائل منها:

○ استشعار أنّ الصراط المستقيم الذي تسلكه - يا أخي- ليس جديدًا ولا وليد قرنك وزمانك، وإنّما هو طريق عتيق[١] قد سار فيه مِنْ قبلك الأنبياء والصديقون والعلماء والشهداء والصالحون، فتزول غربتك، وتتبدل وحشتك أنسًا، وكآبتك فرحًا وسرورًا؛ لأنك تشعر بأن أولئك كلهم إخوة لك في الطريق والمنهج.

○ **الشعور بالاصطفاء؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾** [النمل: ٥٩].

﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ [فاطر: ٣٢]

﴿وكذلك يجتبيك ربُّك ويُعَلِّمُك من تأويل الأحاديث﴾ [يوسف: ٦]

---

(١) عتيق: صفة مدح - مثل: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾، «وعليكم بالأمر العتيق»، وفي لسان العرب؛ العتيق: الكريم الرائع من كل شيء (١٠/٢٣٦).

وكما أن الله اصطفى الأنبياء فللصالحين نصيب من ذلك الاصطفاء وهو ما ورثوه من علوم الأنبياء.

o ماذا يكون شعورك لو أن الله خلقك جمادًا، أو دابّة، أو كافرًا ملحدًا، أو داعيًا إلى بدعة، أو فاسقًا، أو مسلمًا غير داعية لإسلامه، أو داعية في طريق متعدد الأخطاء؟

* ألا ترى أن شعورك باصطفاء الله لك؛ وأن جعلك داعية من أهل السنة والجماعة من عوامل ثباتك على منهجك وطريقك؟

تاسعًا : ممارسة الدعوة إلى الله عز وجل

النفس إن لم تتحرك تأسن، وإن لم تنطلق تتعفن، ومن أعظم مجالات انطلاق النفس: الدعوة إلى الله، فهي وظيفة الرّسل، ومخلصة النّفس من العذاب، فيها تتفجر الطاقات، وتُنجز المهمات

﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت﴾ [الشورى : ١٥]

وليس يصح شيء يقال فيه (فلان لا يتقدم ولا يتأخر) فإن النفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، والإيمان يزيد وينقص.

والدعوة إلى المنهج الصحيح - ببذل الوقت، وكدّ الفكر، وسعي الجسد، وانطلاق اللسان، بحيث تصبح الدعوة همّ المسلم وشغله الشاغل - يقطع الطريق على محاولات الشيطان بالإضلال والفتنة.

زد على ذلك ما يحدث في نفس الداعية من الشعور بالتحدي تجاه العوائق، والمعاندين، وأهل الباطل، وهو يسير في مشواره الدّعويّ؛ فيرتقي إيمانه، وتقوى أركانه.

فتكون الدعوة بالإضافة لما فيها من الأجر العظيم وسيلة من وسائل الثبات، والحماية من التراجع والتقهقر؛ لأن الذي يُهاجم لا يحتاج للدّفاع. والله

مع الدعاة يثبتهم ويسدد خطاهم.

والداعية كالطبيب يحارب المرض بخبرته وعلمه، وبمحاربته في الآخرين فهو أبعد من غيره من الوقوع فيه.

عاشرًا : الالتفاف حول العناصر المثبتة

تلك العناصر التي من صفاتها ما أخبرنا به عليه الصلاة والسلام: «**إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشرّ**»(١).

البحث عن العلماء والصالحين والدعاة المؤمنين، والالتفاف حولهم مُعين كبير على الثبات.

وقد حدثت في التاريخ الإسلامي فتن ثَبَّتَ الله فيها المسلمين برجال.

ومن ذلك: ما قاله علي بن المديني رحمه الله

(١) حسن - رواه ابن ماجه عن أنس مرفوعًا (٢٣٧)، وابن أبي عاصم في كتاب السنة (١/١٢٧)، وانظر السلسلة الصحيحة (١٣٣٢).

تعالى: (أعزّ الله الدين بالصدّيق يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة)[١].

وتأمل ما قاله ابن القيم رحمه الله عن دور شيخه شيخ الإسلام في التثبيت: (وكنّا إذا اشتدّ بنا الخوف، وساءت منّا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كلّه عنّا، وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينةً.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل، وآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها)[٢].

وهنا تبرز الأخوة الإسلامية كمصدر أساسي للتثبيت، فإخوانك الصالحون والقدوات والمربون هم العون لك في الطريق، والركن الشّديد الذي تأوي إليه فيثبتوك بما معهم من آيات الله والحكمة..

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ١٩٦).

(٢) الوابل الصيب ط بشير عيون (ص ٩٧)

الزمهم وعشْ في أكنافهم وإياك والوحدة فتتخطفك الشياطين، فإنما يأكل الذئبُ من الغنم القاصية.

الحادي عشر: الثقة بنصر الله وأن المستقبل للإسلام

نحتاج إلى الثبات كثيراً عند تأخر النصر، حتى لا تَزلّ قدم بعد ثبوتها. قال الله تعالى: ﴿ **وكأيّن من نبي قاتل معه ربِّيُّونَ كثير فما وهَنُوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استكَانوا والله يحبّ الصابرين*وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين*فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة**﴾[آل عمران: ١٤٦-١٤٨]

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يثبت أصحابه المعذبين أخبرهم بأن المستقبل للإسلام في أوقات التعذيب

والمحن. فماذا قال؟

جاء في حديث خباب مرفوعًا عند البخاري: **«وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه»**(١).

فَعَرْضُ أحاديث البشارة بأن المستقبل للإسلام على الناشئة مُهمٌّ في تربيتهم على الثبات.

الثاني عشر: معرفة حقيقة الباطل وعدم الاغترار به

في قول الله عزّ وجلّ: **﴿لا يغرنك تقلّب الذين كفروا في البلاد﴾** [آل عمران: ١٩٦] تسرية عن المؤمنين وتثبيت لهم.

وفي قوله عزّ وجلّ: **﴿فأمّا الزبد فيذهبُ جُفاءً﴾** [الرعد: ١٧] عبرة لأولي الألباب في عدم

(١) رواه البخاري. انظر فتح البارى (٧/ ١٦٥).

الخوف من الباطل والاستسلام له.

ومن طريقة القرآن فضح أهل الباطل وتعرية أهدافهم ووسائلهم ﴿**وكذلك نُفَصّلُ الآيات ولتستبينَ سبيلُ المجرمين**﴾ [الأنعام: ٥٥] حتى لا يؤخذ المسلمون على حين غرة، وحتى يعرفوا من أين يؤتى الإسلام.

○ وكم سمعنا ورأينا حركات تهاوت ودعاة زلت أقدامهم ففقدوا الثبات لما أتوا من حيث لم يحتسبوا بسبب جهلهم بأعدائهم.

الثالث عشر : استجماع الأخلاق المعينة على الثبات

وعلى رأسها الصبر، ففي حديث الصحيحين: «**ما أعطى أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»(١).

وأشد الصبر عند الصدمة الأولى، وإذا أصيب

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

المرء بما لم يتـوقع تحصل النكسـة ويزول الثـبات إذا عُدم الصبر.

○ تأمل فيـما قـاله ابن الجوزي رحـمه الله: (رأيت كبيرًا قارب الثمانين وكان يحافظ على الجماعة فمات ولد لابنته، فقال: ما ينبـغي لأحد أن يدعو، فإنه ما يستجيب. ثم قال: إن الله تعالى يعاند فما يترك لنا ولدًا)[1]. تعالى الله عن قوله علواً كبيرًا.

○ لما أُصيب المسـلمون في أُحد لم يكونوا لـيتوقـعوا تلك المصيبة؛ لأن اللهِ وعدهم بالنصر، فعلمهم الله بدرس شديد؛ بالدماء والشهداء: ﴿**أو لَمَّا أصابتكم مصيبة قد أصـبتم مثليها قلتم أَنَّى هذا قل هو من عند أنفـسكم**﴾ [آل عمـران: ١٦٥]. مـاذا حـصل من عند أنفسهم؟

---

(١) الثبات عند الممات لابن الجوزي ط دار الكتب العلمية (ص ٣٤).

﴿فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا﴾ . [آل عمران: ١٥٢]

الرابع عشر : وصية الرجل الصالح

عندما يتعرض المسلم لفتنة ويبتليه ربه ليمحصه، يكون من عوامل الثبات أن يقيض الله له رجلاً صالحًا يعظه ويثبته، فتكون كلمات ينفع الله بها، ويسدد الخطى، وتكون هذه الكلمات مشحونة بالتذكير بالله، ولقائه، وجنته، وناره.

وهاك أخي، هذه الأمثلة من سيرة الإمام أحمد رحمه الله، الذي دخل المحنة ليخرج ذهبًا نقيًا.

لقد سيق إلى المأمون مقيدًا بالأغلال، وقد توعده وعيدًا شديدًا قبل أن يصل إليه، حتى لقد قال خادم للإمام أحمد:

(يعزّ عليّ يا أبا عبد الله، أن المأمون قد سلّ سيفًا لم يسلّه قبل ذلك، وأنه يقسم بقرابته من رسول الله

ﷺ، لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف)[١].

وهنا ينتهز الأذكياء من أهل البصيرة الفرصة؛ ليلقوا إلى إمامهم بكلمات التثبيت؛ ففي السير للذهبي (١١/٢٣٨) عن أبي جعفر الأنباري قال: « لما حُملَ أحمد إلى المأمون أُخبرت، فعبرت الفرات، فإذا هو جالس في الخان، فسلمت عليه.

فقال: يا أبا جعفر تعنّيت.

فقلت: يا هذا، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبنّ خلق، وإن لم تُجب ليمتنعنّ خلق من الناس كثير. ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك، فإنك تموت، لابد من الموت، فاتق الله ولا تجب.

فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله.

ثم قال: يا أبا جعفر، أعدْ.

فأعدت عليه وهو يقول: ما شاء الله. . . » اهـ.

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٣٣٢).

وقال الإمام أحمد في سياق رحلته إلى المأمون:

«صرنا إلى الرحبة، ورحلنا منها في جوف الليل، فعرض لنا رجل فقال: أيكم أحمد بن حنبل؟

فقيل له: هذا.

فقال للجمّال: على رِسْلِكَ.. ثم قال:

(يا هذا، ما عليك أن تُقتل ها هنا، وتدخل الجنة).

ثم قال: أستودعك الله. ومضى.

فسألت عنه، فقيل لي: هذا رجل من العرب، من ربيعة، يعمل الصوف في البادية، يقال له: جابر ابن عامر، يُذكر بخير»[١].

وفي البداية والنهاية: أن الأعرابي قال للإمام أحمد:

(يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤمًا عليهم، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه؛ فيجيبوا؛ فتحمل أوزارهم يوم

(١) سير أعلام النبلاء (١١ / ٢٤١)

القيــامة، وإن كنت تحب الله، فاصبــر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تُقتل).

قال الإمــام أحمد: وكــان كلامه مما قــوى عزمي على ما أنا فيــه من الامتناع عن ذلك الذي يدعونني إليه[١].

وفي رواية،أن الإمام أحمد قال: (ما سمعت كلمة منذ وقــعت في هذا الأمــر أقوى من كــلمة أعــرابي كلمني بها في رحــبة طوق[٢]). قال: (يا أحــمد إن يقــتلك الحق؛ مُتّ شــهــيدًا، وإن عــشت؛ عــشت حميدًا.. قوى قلبي)[٣].

ويقول الإمام أحمد عن مرافقه الشاب (محمد بن نوح) الذي صمد معه في الفتنة:

ما رأيت أحدًا - على حداثة سنه، وقَدر علمه - أقومَ بــأمر الله من محــمد بن نوح، إنــي لأرجو أن

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٣٣٢).
(٢) اسم بلدة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات. السير (١١/ ٢٤١).
(٣) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٤١).

يكون قد خُتِمَ له بخير.

قال لي ذات يوم: (يا أبا عبد الله، الله الله، إنك لست مثلي؛ أنت رجلٌ يُقتدى بك، قد مدّ الخلق أعناقهم إليك؛ لما يكون منك. فاتق الله، واثبت لأمر الله). فمات وصليت عليه ودفنته[١].

وحتى أهل السجن الذين كان يصلي بهم الإمام أحمد وهو مقيّد، قد ساهموا في تثبيته.

فقد قال الإمام أحمد مرّة في الحبس: (لست أبالي بالحبس - ما هو ومنزلي إلا واحد - ولا قتلاً بالسيف، وإنما أخاف فتنة السوط).

فسمعه بعض أهل الحبس فقال: (لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلا سوطان، ثم لا تدري أين يقع الباقي).

فكأنه سُرِّي عنه[٢].

فاحرص أيها الأخ الكريم على طلب الوصية من

(١) سير أعلام النبلاء (١١/٢٤٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٤٠).

الصالحين، وأعقلها إذا تُليت عليك.

- اطلبها قبل سفر إذا خشيت مما قد يقع فيه.
- اطلبها أثناء ابتلاء، أو قبل محنة متوقعة.
- اطلبها إذا عُينت في منصب أو ورثت مالاً وغنى.

وثبت نفسك، وثبت غيرك والله ولي المؤمنين.

الخامس عشر : التأمل في نعيم الجنة وعذاب النار وتذكر الموت

والجنة بلاد الأفراح ، وسلوة الأحزان، ومحط رحال المؤمنين. والنفس مفطورة على عدم التضحية والعمل والثبات إلا بمقابل يهوّن عليها الصعاب، ويذلل لها ما في الطريق من عقبات ومشاق.

فالذي يعلم الأجر تهون عليه مشقة العمل وهو يسير، ويعلم بأنه إذا لم يثبت فستفوته جنة عرضها السموات والأرض ، ثم إن النفس تحتاج إلى ما يرفعها من الطين الأرضي ويجذبها إلى العالم العلوي. وكان

النبيﷺ يستخـدم ذكر الجنة في تثبيت أصـحابه، ففي الحديـث الحسن الصـحيح مـرّ رسول الله ﷺ بيـاسر وعمّار وأمّ عمار وهم يؤذون في الله تعالى فقال لهم: «**صبرًا آل ياسر، صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة**»[(١)].

وكذلك كان ﷺ يقول للأنصار: «**إنكم ستلقون بعدي أَثَرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**» متفق عليه.

وكذا من تأمل حـال الفريقين في القبر، والحـشر، والحساب، والميزان، والصراط، وسائر منازل الآخرة.

كـمـا أن تذكـر الموت يحـمي المسلم من التـردي، ويوقفـه عند حدود الله فلا يتـعداها؛ لأنه إذا علم أن الموت أدنى من شراك نعله، وأن سـاعته قـد تكون بعد لحظات، فكيف تسوّل له نفســه أن يزلّ، أو يتمادى في الانحراف؟ ولأجـل هذا قال ﷺ: «**أكـثروا من ذكـر هادم اللذات**»[(٢)].

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٣٨٣)، وهو حديث حسن صحـيح، انظر تخريجه في فقه السيرة تحقيق الألباني (ص ١٠٣).

(٢) رواه الترمذي (٢/ ٥٠)، وصححه الشيخ الألباني في إرواء الغليل (٣/ ١٤٥).

مواطن الثبات

وهي كثيرة تحتاج إلى تفصيل، نكتفي بسرد بعضها على وجه الإجمال في هذا المقام:

أولا: الثبات في الفتن

التقلبات التى تصيب القلوب سببها الفتن، فإذا تعرض القلب لفتن السراء والضراء فلا يثبت إلا أصحاب البصيرة الذين عمّر الإيمان قلوبهم.

ومن أنواع الفتن:

○ **فتنة المال:**

﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين* فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦]

○ **فتنة الجاه:**

﴿واصبـر نفـسك مع الذين يدعون ربهم بالغـداة والعـشي يريدون وجـهه ولا تعـد عـيناك عنهم تريد زينة الحيـاة الدنيا*ولاتطع من أغفلنا قلبـه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا﴾. [الكهف: ٢٨]

وعن خطورة الفـتنتين السـابقـتين قـال ﷺ: « مـا ذئبان جـائعان أرسلا في غنـم بأفسد لهـا من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[١].

والمعنى أن حرص المرء على المال والشرف أشد فسادًا للدين من الذئبين الجائعين الذين أرسلا في غنم.

○ **فتنة الزوجة:**

﴿إن مـن أزواجكـم وأولادكم عـــــــدوًا لكـم فاحذروهم﴾ [التغابن: ١٤].

○ **فتنة الأولاد:**

«الولد مجبنة مبخلة محزنة»[٢].

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٦٠)، وهو في صحيح الجامع (٥٤٩٦).
(٢) رواه أبو يعلى (٢/٣٠٥)، وله شواهد، وهو في صحيح الجامع (٧٠٣٧).

○ **فتنة الاضطهاد والطغيان والظلم:**

ويمثلها أروع تمثيل قول الله عز وجل:

﴿قتل أصحاب الأخدود* النار ذات الوقود* إذ هم عليها قعود* وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود* وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد* الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد﴾ [البروج: ٤ - ٩].

وروى البخاري عن خباب رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة. فقال عليه الصلاة والسلام:

«قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد، من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه»(١).

---

(١) رواه البخاري، انظر فتح الباري (١٢/ ٣١٥).

○ **فتنة الدجال:**

وهي أعظم فتن المحيا:

«**يا أيها الناس إنها لم تـكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله آدم أعظم من فتنة الدجـال... يا عباد الله، أيها الناس فاثبتوا فإني سأصـفه لكم صفة لم يصفها إياه قبلي نبي...**»(١).

وعن مراحل ثبـات القلوب وزيغها أمـام الفتن يقول النبي ﷺ:

«**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشـربها نكت فـيه نكتـة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين؛ على أبيض مـثل الصـفـا؛ فلا تـضره فـتنة مـا دامت السـموات والأرض، والآخـر أسـود مُربدًا كـالكوز مُـجَخّـيًا لا يعـرف معـروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا مـا**

(١) رواه ابن ماجة (٢/ ١٣٥٩)، انظر صحيح الجامع (٧٨٧٥).

أُشرب من هواه(١).

ثانيا: الثبات في الجهاد

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا﴾ [الأنفال: ٤٥]

ومن الكبائر في ديننا الفرار من الزحف، وكان عليه الصلاة والسلام وهو يحمل التراب على ظهره في الخندق يردد مع المؤمنين: «**وثبت الأقدام إن لاقينا**»(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ٣٨٦)، ومسلم (١/ ١٢٨) واللفظ له.
عرض الحصير: أي تؤثر الفتن في القلب كتأثير الحصير في جنب النائم عليه.
مربادًا: بياض شديد قد خالطه سواد.
مجخيًا: مقلوبًا، منكوسًا.

(٢) رواه البخاري في كتاب الغزوات، باب غزوة الخندق، انظر الفتح (٧/ ٣٩٩).

ثـالثًا: الثبات على المنهج

﴿من المؤمنين رجـال صـدقوا مـا عـاهدوا الله عليـه فـمنهم من قــضى نحبـه ومنهم من ينـتظر ومـا بدلوا تبـديلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣] مـبادئهم أغلى من أرواحــهم. إصرار لا يعرف التنازل.

رابعًا: الثبات عند الممات

أما أهل الكفر والفـجور فإنهم يحرمـون الثبات في أشد الأوقات كربة، فلا يستطيعون التلفظ بالشهادة عند الموت، وهذا من علامـات سوء الخاتمة كمـا قيل لرجل عند موته: قل لا إله إلا الله. فجعل يحـرّك رأسه يمينًا وشمالاً يرفض قولها.

وآخـر يقول عند مـوته: «هذه قطعـة جيـدة، هذه مشتراها رخيص».

وثالث يذكر أسماء قطع الشطرنج.

ورابع يدندن بألحـــان أو كلمـات أغنيـــة، أو ذكـر

معشوق.

ذلك لأن مثل هذه الأمور أشـغلتهم عن ذكر الله في الدنيا.

وقـد يرى من هؤلاء سـواد وجه أو نتن رائحـة، أو صرف عن القبلة عند خـروج أرواحهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أما أهل الصلاح والسنة فإن الله يوفقهم للثبات عند الممات، فينطقون بالشهادتين.

وقـد يُرى من هؤلاء تهـلل وجـه، أو طيب رائحـة ونوع استبشار عند خروج أرواحهم.

وهذا مثـال لواحد ممن وفـقهم الله للثبات في نازلة الموت، إنه أبو زرعـة الرازي أحد أئمة أهـل الحديث، وهذا سياق قصته:

قال أبـو جعفـر محـمد بن عليّ ورّاق أبـي زرعة: حضـرنا أبا زرعة بماشـهران[١]، وهو في السَّوْقِ (أي:

(١) من قُرى الري.

عند احـتضـاره) وعنده أبو حـاتم وابن واره والمنذر بن شاذان وغيـرهم، فذكروا حـديث التلقين «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» واسـتحـيـوا من أبي زرعـة أن يلقنوه. فقالوا: تعالوا نذكر الحديث، فقال ابن واره: حدثنا أبو عاصم حدثنا عبد الحميـد بن جعفر عن صالح، وجعل يقول ابن أبي - ولم يجاوزه - فـقال أبو حاتم: حدثنا بُندار حدثنا أبو عاصم، عن عـبد الحميد بن جـعفر، عن صالح. ولم يـجاوز، والباقـون سكتوا، فـقال أبو زرعة وهو في السَّوْق «وفتح عـينيه» حدثنا بُندار حدثنا أبو عاصم حدثنا عبد الحـميد عن صالح بن أبي عريب عن كثير بن مرّة عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من كـان آخر كلامـه لا إله إلا الله دخل الجنة» وخرجت روحه رحمه الله[1].

ومثل هؤلاء قال الله فيهم: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله**

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٧٦، ٨٥).

ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ [فصلت: ٣٠].

اللهم اجعلنا منهم، اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد صالح المنجد

الفهرس

★ ★ ★

رقم الإيداع: ١٦٤٢٢ / ٩٨